في الخلاص: خلاصي وخلاص الآخر

المتروبوليت سابا (اسبر)

يذكر القدّيس صفروني محادثة جرت بين القديس سلوان وبين ناسكٍ كان يقول بلهجة بدا فيها الارتياح واضحاً: "إنّ الله سيعاقب كلّ الملحدين. سوف يحترقون في النار الأبدية."

فأجابه القدّيس سلوان بألمٍ واضح:" حسناً، قلْ لي، أرجوك، إذا كان الفردوس نصيبك، وكان بإمكانك أن تعاين من هناك كيف يحترق أحدٌ بنار الجحيم؛ فهل يمكنك أن تكون في سلام."

فأجابه قائلاً: "ما العمل؟ فهذا بسبب ذنوبهم الخاصّة". فقال القدّيس سلوان بوجهٍ متألم: "الحبّ لا يمكنه أن يحتمل ذلك... علينا أن نصلّي من أجل جميع الناس."

أنطلق من هذه المحادثة الى التأمل بالخلاص بعامّة، وبخلاص غير المؤمنين بخاصّة، وهو ما يبدو أنّه يشغل بال الكثير من أبناء رعايانا، بدليل ترداد السؤال كثيراً في أثناء زياراتي الرعوية: ماذا عن خلاص غير المؤمنين، أو غير الأرثوذكس؟

بالتأكيد لا تتسع مقالة صغيرة كهذه لعرض هذا الموضوع الشائك. لكنّني سأقدّم بعض الأفكار الأساسية بخصوص إيماننا كأرثوذكسيين في هذا الأمر.

يقول إيماننا المسيحي بوضوح بالدينونة الأخيرة التي ستتم في نهاية الزمان. مَثَل الخراف والجداء شديد الوضوح في إنجيل متّى(٢٥/٣١-٤٦). ما يفعله الإنسان خلال حياته الأرضية يترك آثاراً في نفسه، ويحمله معه إلى الحياة بعد الموت. يذكر المَثَل أنّ المسيح هو من يُجري الدينونة، لأنّ الخلاص مرهون بمن يؤمن به. المسيح هو ديّان كلّ البشر في اليوم الأخير.

نعلم أيضاً، أنّنا لا نستطيع أن نؤسس تعليماً كاملاً بخصوص الإيمان على مَثَلٍ واحد أو آيةٍ واحدة، بل على مجمل تعليم المسيح. لا يمكننا أن نستنتج من المَثَل إيّاه أنّ الإيمان، على سبيل المثال، غير مهمّ في الدينونة الأخيرة، لمجرّد أنّ المَثَل يتكلّم على أعمال المحبّة فقط. فقد ورد في مكان آخر: "فمَنْ يؤمن بالابن لا يُدان. ومن لا يؤمن

به فقد دين، لأنّه ما آمن بابن الله الأوحد"(يو٣/١٨). علينا أن نأخذ الكلام الإلهي كلّه، ونعرف السياق الذي وردت فيه كلّ كلمة أو جملة أو مَثَل. اجتزاء الكلام الإلهي، والاكتفاء بآية أو بنصف آية من هنا وآية من هناك يدعم ما نريد أن نقوله نحن، لا ما يريد أن يقوله الله لنا.

يحافظ الإيمان الأرثوذكسي على ما تسلّمناه منذ البدء، ويشدد على أن ما من خلاص خارج المسيح والمعمودية والكنيسة. لذا يُطرح السؤال: ماذا عن غير المؤمنين؟

في سياق حديثه عن الخلاص بالشريعة يقول الرسول بولس أنّ من عندهم الشريعة (شريعة العهد القديم) ويعملون بها يتبّررون، أمّا "الذين بلا شريعة، إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم، مع أنّهم بلا شريعة. فيثبتون أن ما تأمر به الشريعة مكتوب في قلوبهم" (رو٢/١٤-١٥). ليخلُص إلى أنّ كلّ شيئ سينكشف علانية في اليوم الأخير "سيظهر هذا كلّه، كما أبّشركم به، يوم يدين الله بالمسيح يسوع خفايا القلوب" (رو٢/١٦). لا يجزم بولس الرسول بخلاص الذين بلا شريعة، ولا يجزم، في الوقت ذاته، بهلاكهم، بل يترك الأمر للدّيان الإلهي الذي يكشف كلّ شئ في الدينونة الأخيرة، فهو العارف بالقلوب وخفايا النفس.

من هنا نخلُص إلى أنّ الذين يعرفون الطريق الذي رسمه لنا الله في المسيح وحفظته الكنيسة وأوضحه الروح القدس، ويعملون به يكونون سائرين في طريق الخلاص، أو بالأدّق في الطريق المؤدي إلى الخلاص. لكن هذا لا يعني أنّهم قد ضمنوا خلاصهم، بل إنّهم يسعون إليه. ما من إنسان بإمكانه أن يضمن خلاص نفسه. لأنّ الخلاص يعطيه الله، لا الإنسان.

إذا كان بولس العظيم لم يقرّر للآخرين خلاصهم أو هلاكهم، ولا حتى لذاته (1كور ٩/٢٧)، فكيف لنا نحن الخطأة أن نوّزع الخلاص أو نمنعه عمّن نراه صالحاً أو غير مستحقّ. لنا أن نرجو خلاصنا وخلاص العالم كلّه. لنرجو الخلاص للجميع، وننتبه ألّا نوّزعه على أحد ولا نمنعه عن أحد، فهذا ليس عملنا. لنا كمؤمنين أن نسعى بأمانةٍ في الطريق الذين أُعطيناه على رجاء خلاص نفوسنا.

يشدّد التعليم الروحي في الكنيسة الأرثوذكسية على ألّا نظنّ يوماً بأنّنا وصلنا إلى القداسة الكاملة وبتنا مستحّقين الخلاص، بل، على العكس، تشدّد في تعليمها وصلواتها على طلب التوبة، وعلى أنّنا غير مستحقين للعيش في نور الله. نعرف الطريق المؤدي إلى الخلاص، وهو الذي رسمه الله لنا في الكنيسة، فنسير فيه راجين خلاص نفوسنا، لا ضامنين إيّاه. فالله هو العارف بسرائر ودواخل قلوب وأذهان البشر، وله وحده أن يقرّر ما إذا لاقاه هذا الإنسان أو ذاك، أم لا، وفيما إذا كان هذا الإنسان أو ذاك مستحقاً الخلاص أم لا.

بعد تجربةٍ روحيّة شديدة قال الله للقدّيس سلوان: "احفظْ ذهنك في الجحيم، ولا تيأس"، أي، آمن بأنّك لا تستحقّ الملكوت السماوي، بل الجحيم، ولا تيأس من رحمة الله، بل عِشْ على الرجاء بالخلاص برحمته. هذا يعلّمنا التواضع ويحثّنا على الاستمرار في الجهاد الروحي وتنقية نفوسنا والسعي إلى حضور الله فينا أكثر فأكثر.

الخلاص شأن الله. دورنا نحن كمؤمنين أن نرجو خلاص الجميع ونصلي من أجله. أما في ما يخصنا شخصياً، فهو أن نعمل على خلاصنا في اتباع الطريق الخلاصية التي أنعم الله علينا بها في الكنيسة، ونتواضع كي نكون شهوداً حقيقين لمسيحنا، الذي يعمل في تواضعنا على تعريف الآخرين به. وأن نصلي في الوقت ذاته بحرارة من أجل خلاص كل الناس وحتى الخليقة.

> "فالخَليقَةُ تَنتَظِرُ بِفارِغِ الصَّبْرِ تَجَلِّيَ أَبناءِ الله. فقد أُخضِعَت لِلباطِل، لا طَوْعًا مِنها، بل بِسُلطانِ الَّذي أَخضَعَها، ومع ذلك لم تَقطَعِ الرَّجاء، لأَنَّها هي أَيضًا ستُحَرَّرُ مِن عُبودِيَّةِ الفَسادِ لِتُشارِكَ أَبناءَ اللهِ في حُرِّيَّتِهم ومَجْدِهم. فإِنَّنا نَعلَمُ أَنَّ الخَليقَةَ جَمْعاءَ تَئِنُّ إِلى اليَومِ مِن آلامِ المَخاض، ولَيسَت وَحْدَها، بل نَحنُ الَّذينَ لَنا باكورةُ الرُّوحِ نَئِنُّ في الباطِن مُنتَظِرينَ التَّبَنِّي، أَيِ افتِداءَ أَجسادِنا" (رو ٨/١٩-٢٣).